تجليات أبعاد الهوية الثلاثة في مقالات

الشيخ البشير الإبراهيمي المنشورة في جرائد الجمعية

الاسم واللقب: مختار سويلم
كلية الآداب واللغات جامعة غارداية
البريد الالكتروني : sm.ghar@yahoo.fr

تاريخ الإرسال: 2020/07/30 – تاريخ القبول: 2021/10/10 – تاريخ النشر: 2021/12/31

مقدمة:

عاشت الأمة الجزائرية إبان الاحتلال الفرنسي أوضاعا اجتماعية مزرية، وعانت من ظروف معيشية قاسية؛ تفنن ساسة هذا المحتل في صناعتها وأخلصت عساكره في تطبيقها؛ وجادت قرائح نخبته في تبريرها واجتهدت أقلام كتّابه 1في تلميع صورتها باسم التحضر حينا وبعنوان التطور حينا آخر.

وكان من البداهة أن يؤثر ضيق العيش وتفاقم الخصاصة في همة الإنسان لطلب العلم والحرص عليه . تماما كما خطط المحتل . لذا انصرف همّ الإنسان الجزائري في ذلك الوقت إلى توفير غذاء البدن والسّعي من أجل لقمة العيش، وانصرف . مُكرها . عن غيرها من الحاجات؛ فكيف للجائع المُعدم أن يفكر في العلم والتعلم؟

لقد كانت . إذا . حسابات المستعمر تهدف إلى تحقيق خطة محكمة قوامها السعي إلى نشر مصائب ثلاث للتحكم في مصائر الشعوب واستعبادها: الجهل، والفقر، والمرض، لذا عانى الجزائري في وطنه أيّما معاناة، وفقد كرامته، وذابت شخصيته 2أو كادت؛ حتى وصل به الأمر إلى التشكيك في وجود أمةٍ ينتمي إليها.

ولكن من بين ذلك الركام، هبّ رجال . وقد انتخبتهم الأقدار . للدفاع عن هذه الأمة،3 ولدفع الوهن عنها، وتصحيح المفاهيم، وإنارة الطريق من جديد؛ لذا انصهرت جهود أولئك الصفوة من الرجال، وتفاعلت إرادتهم لتنبثق جرّاء ذلك هيئة كالجسد الواحد بل كالبنيان المرصوص؛ أرعبت شركاء المحتل في كيده، وأسعدت أُصلاء الوطن وشركاءهم في محبته؛ إنها " جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" التي ردّتْ على فرنسا بشعار بسيط في الظاهر لكنه عميق الدلالة:" الإسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا".

هذا الشعار الذي جمع عناصر الهوية الثلاثة وأسس لرؤية جديدة سيُسفر بواسطتها صباح الأمة وستشرق شمسها لا محالة؛ فكانت تجلياتها بارزة في خطابات رجالات الجمعية؛ وكان صداها حاضرا في نصوصهم؛ لذا نسعى عبر هذا المقال إلى تقصي حضور عناصر تلك الهوية في مقالات الشيخ البشير الإبراهيمي المنتشرة في جرائد الجمعية؛ ولعل شيئا من ذلك يتحقق إذا تمكنّ من الإجابة على الإشكالية التالية: ما مدى حضور عناصر الهوية الثلاثة في النص الإبراهيمي؟ وكيف كانت تجليات ذلك الحضور في مقالاته ضمن جرائد جمعية العلماء المسلمين الجزائريين؟

البعد الأول: الإسلام

يخاطب الشباب فيحدّثهم عن الإسلام ليحيي فيهم شعلة الإيمان للذود عن حماهم فيقول: " ...وكان يُدافع عنه جندٌ من أبنائه، عرضهم على ميزانه فرجحوا، واستعرضهم فنجحوا، وامتحن قلوبهم للتقوى فتكشفوا عن الطيب والطهر، وتلاقت

العقائد الصريحة، والقواعد الصحيحة على إنارة غسق الأرض بإشراق السماء"4. فاستراتيجية الإبراهيمي هنا تنحو إلى إثارة العاطفة في المتلقي؛ بحيث أنه ذكر قضية الدفاع لوجود خطر؛ وحدد المدافع ووصفه؛ فقال:" جند من أبنائه"؛ إلا أن هذا المدافع لم يكن فئة عادية؛ بل كانت ثلّةً قد مرت باختبارات وتشبعت بنتاج خبرات؛ بحيث استعرضهم هذا الدين على ميزانه الدقيق (تقوى القلوب) فرجحت كفتهم، وصاروا نخبة تمثّله ونجوما يَهتدي بها الناس؛ فحيثما وجدت إيمانًا صدَّقه العمل؛ فثمّة رجال الله، ورجال الإسلام، وهو ما عبرّ عنه الشيخ بقوله:" وتلاقت العقائد الصريحة، والقواعد الصحيحة على إنارة غسق الأرض بإشراق السماء ".5 و ذلك أن الالتزام بالدين والعمل وفق تعاليمه يُكسب المرء حبّ الناس وثقتهم؛ لأن الدين المعاملة.

في هذه الظروف التي تعيشها الأمة، كانت الجزائر في حاجة إلى مثل هذه النماذج؛ حتى تقارع المحتل الفرنسي، وتقف في وجه أذنابه الذين يسعون إلى إطفاء جذوة الإسلام في أبناء الوطن، وتلك هي الحقيقة التي حرص الإبراهيمي على تبيانها في هذا المقال عبر العنوان " الدين المظلوم"6. وعبر تحديد الظَّلَمة حيث يقول:" والدين المظلوم في زماننا هو الإسلام في الجزائر: مظلوم من أهله؛ إذ لم يدافعوا عنه، ولم يأخذوا بحقه من ظالمه، ومظلوم من هذه الحكومة ذات الألوان التي تحكم الجزائر بما تمليه القوة، لا بما يُوحيه الحق والعدل"7. وهل اعترف المغتصب يوما ما بحقٍ نام أهله عن استرداده.

وقد يتساءل السائل؛ كيف ستتصرف جمعية العلماء إيزاء هذه القضية؛ وأين يكمن دورها في هذا الدفاع؟؛ ليجد جوابا لدى الشيخ في المضمون التالي:" أما جمعية العلماء فلم تنم عن حقّ من حقوق الإسلام، ولم تفرط في قُلامة ظفر منها، بل قامت بواجبات الدفاع عنه في ثلاثة ميادين في وقت واحد".8

ثم يحدّد هذه الميادين فكانت: الميدان الخارجي؛ ويقصد به المُبشِّرين والملحدين، والميدان الخاص بالحكومة الجزائرية في قضية فصل الدين عن الدولة؛ وأخيرا الميدان الداخلي ويتعلق بأبناء القوم والملّة بتعليم الجاهل وهداية الضال وإقناع المعاند.9 إلاّ أن هذه الميادين تكشف ضخامة المشروع الذي جاءت به الجمعية وتبرز ضراوة الصراع الذي خاضه قادتُها في تلك الحقبة من الزمن من أجل الحفاظ على هوية الشعب الجزائري وتحصين مرجعيته.

وبما أن الجزائر . في تلك الحقبة من الزمن . كانت تعيش ظرفا خاصا فرضته سياسة المحتل التي اعتمدت سياسة الاستيطان والتوطين في هذه الأرض؛ عن طريق استقدام شذاذ الآفاق من كل الملل والنحل، وعبر جلب المجرمين والقتلة والانتهازيين من أوروبا، فخلقت منهم فئة أسمتها المعمرّين؛ مكّنتها من ريع البلد وخيراته؛ ظلّتْ تُزاحم بهم جماهير الأمة الجزائرية الأصلاء في أرضهم؛ وتفسد عليهم دينهم وثقافتهم؛ فكان لزاما على الشيخ الخوض في هذه القضية من وجهة نظره في مقاله الموسوم بـ "**الأديان الثلاثة في الجزائر**"[10] فإلى ماذا يصبو الكاتب بهذا العنوان؟

لعل الإبراهيمي يريد . عبر هذا العنوان . الإشارةَ إلى حقيقة وجود هذه الأديان في الجزائر من الناحية الزمانية؛ وبالتالي كشف سرّ استقرار أصحابها على هذه الأرض؛ يقول في مطلع المقال: " تتجاور في الجزائر أديان ثلاثة؛ أصلها من السماء وإن أخلد أتباعها إلى الأرض. وأساسها التوحيد وإن شانها أهلها بالتثليث أو الوثنية، وكُتبها وحي إلهيّ؛ ولكن وصمها بعضهم بالتحريف والتبديل، وخلطها بعضهم بالأجنبي والدخيل، وعاملها بعضهم بالتأويل والتعطيل".11 وهكذا يصنع أصحاب الأهواء من أتباع تلك الديانات؛ والدين بريء من تصرفاتهم.

ونعتقد أن في اختيار الفعل " تتجاور" دون غيره من الأفعال؛ وافتتاح المقال به؛ ما يوحي إلى سماحة الإسلام؛ وذلك أن الإبراهيمي يكتب إلى قرّاء فيهم الأجنبي الذي يفقه العربية ويفكر بمنطق المحتل الذي آواه ومكنّه من الاستقرار في هذه

الأرض، نعم إن افتتاحية هذا المقال توحي إلى مدى سماحة الإسلام وتسامحه مع الأديان السماوية؛ لأن التجاور يعني الاحترام والعيش في سلام.

وغني عن التذكير بأن "حسن الجوار" هي الفضيلة التي دأب ديننا على الدعوة إليها والتّمسك بها؛ كما أنه يلمح . بهذا الاختيار . أيضا إلى أسبقية وجود الإسلام في تلك العصور(قبل الاحتلال) بالرغم من أنه جاء مع الفاتحين؛ لكنه يكشف عن هذا التلميح عندما يصرح بالقول: " جاء الإسلام إلى هذا الشمال فوجد من اليهودية عرقا ناشزا منتبرا، ومن النصرانية عرقا سائسا نخرا؛ فقضى عليهما بسماحه، ولم يقض على أهلهما لسماحته".12 فانجذبت القلوب إلى الفطرة وانصرفت عن زيف ما كانت تعتقد بعد أن تكشفت لأصحابها حقيقة الإسلام وسماحته.

هذه القضية فصّلها بشكل رائع عندما بيّن سياسة الغالب في الإسلام، وحكمة ما افترضه على أهل الذمة من الخراج والجزية؛ إلى أن يشير إلى صنيع المحتل الفرنسي عندما غزت أساطيله الجزائر؛ فيقول:" جاء الاستعمار الدنس الجزائر يحمل: السيف والصليب؛ ذاك للتمكن؛ وهذا للتمكين".13 وهي مقارنة واضحة بين معاملة الإسلام (فتح)، وتصرف فرنسا المتحضرة (احتلال)؛ ففي هذا الجناس من الرونق ما يفصح عن سرّ تجاور لفظتي "التمكن والتمكين"؛ إلاّ أنه يعود إلى فكرة تجاور الأديان في الجزائر ليفصح عن حقيقة مرّة؛ مضمونها: أن لا تسامح مع المسلمين والإسلام مطلقا؛ فيقول: "إن الجزائر اليوم ميدان صراع؛ لا أقول بين الأديان الثلاثة كل على انفراده؛ وإنما أقول بين الإسلام وحده من جهة. وبين المسيحية واليهودية مجتمعتين من جهة أخرى"14، فتوافق المصالح بين المتخالِفِين تقتضي الشراكة وتوحيد الجهود ضدّ العدو المشترك؛ ولكن شمس الحق أبعد أن تُحجب بكيد الكائدين؛ لذلك يختم هذا المقال بهذه الحقيقة: " إن الإسلام في الجزائر ثابت ثبوت الرواسي، متين متانة القواعد والأواسي، قد جلا الإصلاح حقائقه؛ فكان له منه كفيل مؤتمن، واستنارت بصائر المصلحين بنوره؛ فكان له منهم حارس يقظ، وعاد كتابه (القرآن) إلى منزلته في الإمامة؛ فكان له منه الحمى لا يطرق، والسياج الذي لا يُخرق".15 ولعمرك؛ إن المتأمل في هذه الكلمات يحسبها شعرا في نثر أو نثرا في رحم الشعر.

وقد يقدّم الشيخ رأيه في فكرة من الأفكار، أو يعلّق على شعار من الشعارات مزجتْ بين مكوناته المتباعدةِ مصالحُ الانتهازيين، وجمعتْ بين بنياته المتنافرةِ لغةُ المنتفعين على الرغم من استحالة هذا الجمع تركيبا ومعنى؛ ولعلنا بهذا التمهيد نلخّص . بشكل بسيط . الغايةَ من كتابة الإبراهيمي لمقال بعنوان" لجنة فرانس–إسلام"16؛ يقول في مطلعه بعد أن يحدد وِجهة الخطاب ومتلقيه:" كلمتان أُكرهتا على الجوار في اللفظ والكتابة، فجاءت كل واحدة منهما ناشزة على صاحبتها، نابية عن موضعها منها، لأنهما وقعتا في تركيب لا تعرفه العربية، ولا يقبله الذوق العربي".17

هذا المزج يقصد به اللجنة التي أنشأتها السلطة الفرنسية باقتراح خبيث من المستشرق الحكومي " لويس ماسينيون LOUIS MASSIGNON"18؛ وهو من الانتهازيين الذين مزجوا بين العلم والسياسة؛ فخلطوا عملا صالحا بعمل سيئ؛ لذا "ساء ظننا بهم تبعا لسوء ظننا بالاستعمار الذي جعلهم جوارح صيده، و وسائل لكيده . ما كنا نتوهم ذلك حتى جاء المستشرق صاحب فكرة " فرانس . إسلام" وقعقع الشنّ، فخيّب الظنّ"؛19

على أن البشير الإبراهيمي لم يكن يفوّت فرصة الحديث عن المحتل إلاّ ذكّر القارئ بحقيقة هذا المحتل ونوازع كيده؛ كقوله في طيات هذا المقال:" نعم..نعم إن فرنسا الاستعمارية عدو الإسلام في ماضيها كلّه، وفي حاضرها، فلم يكتب تاريخها أنها جاورته فأحسنت؛ أو قدرت عليه فعفَت، أو عاملته فصدقت، أو حكمت أهله فعدلت".20 فمشكلتها مع الإسلام الذي يغرس في قلوب أتباعه الثقة في نصر الله وأن القوة لله جميعا.

ولعل القارئ الكريم قد لاحظ معي استعمال الشيخ لعبارة " فرنسا الاستعمارية " حتى لا يُدرج كلامُه في الخانة الخطأ أو يُفهم على غير قصده؛ فلا يعني هذا الوصف الفرنسيين بالمطلق؛ وإنما من كان يحمل جينات التسلّط في دمه وصدّق فعلُه طبيعتَه.

وفي مقاله المعنون بـ " عواقب سكوت علماء الدين من الضلال في الدين"21، يسعى الشيخ البشير الإبراهيمي إلى التذكير بسلطة علماء الدين في الإسلام؛ وذلك في غياب قوة السلطة السياسية للجزائريين بحكم الاحتلال؛ لأن خلُوَّ الساحة من سلطة العلماء أو ضعف أدائهم وتدنّي مكانتهم في نفوس الجماهير سيكون عاملَ قوة لصالح المحتل الفرنسي؛ وفرصةً سانحةً ليتحكم في الأهواء، ويسيطر على العقول في ظل انتشار الأمية وتفشّي الجهل؛ ومن الواضح أن الإبراهيمي يحذّر من نتائج ذلك عبر صياغته الدقيقة لعنوان المقال الذي يقول فيه: " لعلماء الإسلام سلطان على الأرواح، مستمد من روحانية الدين الإسلامي وسهولة مدخله إلى نفوس: تخضع له العامة عن طواعية ورغبة، خضوعا فطريا لا تكلف فيه، لشعورهم بأنهم المرجع في بيان الدين، وبأنهم لسانه المعبّر حقا عن حقائقه، والمبين لشرائعه، وبأنهم حراسه المؤتمنون على بقائه، وبأنهم الورثة الحقيقيون لمقام النبوة".22 ويا لها من أمانة!

وحتى تبقى هذه المكانة ويستمر هذا الشرف، وجب على العالم أن لا يكون عبدا لشهواته خاضعا لنزواته فـ " لا ترجع هيبة العلماء إلى مستقرها في النفوس الأمة حتى يقوموا بعهد الله في بيان الحق، وتظافروا على حرب البدع والضلالات التي لابست الإسلام، ولبَست عقائده ففسدت، وآدابه فكسدت، ولبستْ على المسلمين دينهم فأصبحتْ حقائقه في واد، وعقولهم في واد، وحتّى يَجلوا على الأمة تلك الكنوز الدفينة في كتاب الله؛ كتاب الإنسانية العليا، وفي سيرة محمد . صلى الله عليه وسلم . دستور الحق والخير والكمال؛ وإن ذلك في صميمه هو ما تقوم به جمعية العلماء المسلمين الجزائريين".23 وتسعى إلى تحقيقه في هذا الظرف العصيب.

بهذه الشروط الواضحة وهذه المقاصد الناصعة، مكّن الله تعالى قادة الجمعية في قلوب الجزائريين؛ وحبب سعيهم في نفوس جماهير القطر الجزائري؛ وهو ما صرّح به مع الإقرار بصعوبة المهمة لولا الاعتصام بحبل الله وبالجماعة؛ " وإن هذه النتيجة لدعوة جمعية العلماء لمعجزة ادّخرها الله لهذا القطر الجزائري، فلا يوجد قطر من أقطار الإسلام تأثر أهله بالفكرة الإصلاحية الدينية كما تأثر مسلمو الجزائر، ولا يوجد في علماء الإسلام جماعة قاموا بهذه الدعوة الجريئة، متساندين مجتمعين، يَجمعهم نظام وانسجام، كما قام رجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، على كثرة اللدَد في الخصم و وفرة اللجاج في المعارض".24 لذلك كان المحتل يراقب رجالات الجمعية ويتربص بهم.

البعد الثاني: اللغة العربية

لم يَغفل الشيخ البشير الإبراهيمي عن الحديث بخصوص اللغة العربية؛ لغة القرآن؛ وصلة الأمة بالدين؛ ورابطتها بتعاليمه؛ وذلك أننا نجده يحدد موقعها في النفوس ويكشف عن مكانتها في الواقع؛ فيقول:" اللغة العربية هي لغة الإسلام الرسميةُ، ومن ثمّ فهي لغة المسلمين الدينيةُ الرسميةُ، ولهذه الأمة الجزائرية حقان أكيدان؛ كلّ منهما يقضي وجوب تعلّمها؛ فكيف إذا اجتمعا؛ حقٌ من حيث أنها لغةُ دين الأمة، بحكم أن الأمة مسلمة، وحقٌ أنها لغة جنسها، بحكم أن الأمة عربية الجنس".25 فبهذا التقرير يفنّد أطماع الطامعين من أهل السياسة في الإدماج، ويوصد الأبواب أمام الساعين نحو أحضان المحتل في المسخ والتدجيل؛ فحيثما ولَّيتَ وجهك؛ فثَمَّة حقّ يفرض على الأمة الجزائرية تعلّمَ اللغة العربية وتعليمها؛ فـ " في المحافظة عليها محافظةٌ على جنسية ودين معا".26 فالعربية واجهة للوطن ودرع للدين.

وهذا الواجب العظيم تكفلت به الجمعية وتعدُّه أشرف أعمالها وهي ما تزال . كما يقول . تطالب دون كلل بحرية التعليم العربي؛ الذي هو أساس التعليم الديني بالرغم من العراقيل والقوانين المجحفة التي سنّها المحتل كي يأتي هذا البنيان من القواعد.

لقد كان هاجس التعليم العربي من أكبر القضايا التي شغلت بال الجمعية واستأثرت باهتمام الشيخ البشير الإبراهيمي؛ وذلك لما يمثله هذا المشروع من وزن عنده، وهو الانشغال ذاته الذي كانت إدارة الاحتلال تنظر من خلاله إلى مشاريع الجمعية؛ لكن من زاويتها طبعا، لذا كانت هذه السلطة لا تذخر جهدا في استعمال أيّ حيلة أو مكيدة تعطّل بها مضيَّ الجمعية في تنفيذ برنامجها المتعلّق بالتعليم العربي الحر؛ وهو ما يكشفه عدد المقالات التي كتبها الإبراهيمي بخصوص هذا الموضوع والتي جاءت بعنوان واحد" التعليم العربي والحكومة".27

وأمام إصرار الإدارة الاستعمارية؛ كان لابد من تبصرة الناس ليستيقظ الغافل ويستنير المجدّ ويكدّ، وهو ما يحمله التحذير الموالي والذي جاء في إحدى تلك المقالات العشرة للشيخ: " كلما زادتْ الأمة إقبالاً على تعلّم لغتها ودينها؛ زادتْ الحكومةُ في القيد تضييقًا، حتى لو أنها نفّذت تلك القرارات بحذافيرها لما بقي في الجزائر من يكتب حرفَ هجاء عربيًّا".28وما كانت حكومة المحتل لتسلك ذلك المسلك لولا إدراكها لمكانة التعليم الديني في المحافظة على الهوية.

وهذا القول يوحي إلى أن الجمعية كانت تتحايل في تعاملها مع لوائح الإدارة وقوانينها، وتجتهد لتفادي الوقوع في شرك تلك القرارات؛" التي بعضها يشلّ وبعضها يغلّ وجميعها يقتل".29 ومن بين أصعب هذه القرارات ما تعلق بقضية الترخيص الذي تتحجج به إدارة الاحتلال وتتماطل في منحه وتُسَوِّف؛ حتى صارت الرخصة في قاموس الجزائري مرادفة للعذاب؛" فلها الويل: أهي رخصة تعليم، أم غصةٌ وعذاب أليم؟"30

البعد الثالث: الجزائر

ومما يمزج بين البعدين: العروبة والجزائر، حديث الشيخ البشير الإبراهيمي المتكرّر عن اللغة العربية في الجزائر؛ وذلك أن التطرق إلى اللغة العربية وتبيان مدى تجذرها في النفوس وانتشارها في المجتمع يغلق الطريق أمام مساعي التدجيل ويسد المنافذ أمام حركة الاندماج والذوبان في ثقافة الغرب البراقة؛ فعندما تقول الوطن الجزائر؛ فأنت تعني العروبة والإسلام؛ وحينما تتحدث عن الأرض؛ فأنت تعني الوطن الجزائر التي لا ترتبط بالمحتل الفرنسي بأي رابط فلا الجنس واحد ولا اللسان واحد ولا الدين واحد مثل ما كان يكرر الإبراهيمي في كلامه ويقرر.

ومن هذا الموقع؛ موقع الجزائري المدافع؛ وبهذه المكانة؛ مكانة اللغة العربية في الجزائر، يردّ البشير الإبراهيمي على هرطقة المحتل الفرنسي الذي راح يشكك في علاقة هذه الأمة بالعروبة؛ يقول:" اللغة العربية في القطر الجزائري ليست غريبة ولا دخيلة، بل هي في دارها، وبين حماتها وأنصارها، وهي ممتدة مع الماضي لأنها دخلت هذا الوطن مع الإسلام على ألسنة الفاتحين؛ ترحل برحيلهم وتقيم بإقامتهم"31، وعليه؛ فإذا كان رحيل الفاتحين عن هذه الأرض في الواقع مستحيلا؛ فإنه بالنسبة للغة العربية مستحيل كذلك؛ بل هو أبعد من الخيال إلاّ أن يلج الجمل في سمّ الخياط.

ولم يفوّتْ الإبراهيمي على الطلبة المهاجرين في سبيل العلم الفرصةَ في تزويدهم بالنصائح وتحصينهم بالحكم؛ حتى يُقدّروا تضحية آبائهم المادية والمعنوية، ويدركوا حقيقة ما يُنتظر منهم لصالح الأمة والوطن والأهل؛ وقد يكون مجال النفس وحظها مما يُنتظر من هذه الهجرة معروفا؛ ونحسب أن مجال الأهل ومكاسبهم مما يُنتظر من هذا التّغرب مدرك محسوس؛ إلا أن ما تعلق بالوطن من ذلك كله يحتاج إلى وقفة ونظر؛ يقول الإبراهيمي " إن الوطن . وهو أبو الجميع . يتطلّع من وراء هذه الهجرة إلى إحياء وتعمير وإعادة مجد وبناء تاريخ"، إلى أن يقول:" وأن الوطن حين يرضى بخلوّه من أبنائه؛ أنهم

ما أخلَوهُ إلاّ لِيُعمّروه، وما قطعوه إلا ليصلوه، وما فارقوه شبانًا عزْلا إلاّ ليعودوا إليه كهولا مسلحين بقوّة التفكير، تظاهرها قوة العلم، تظاهرها قوة العمل".32 فهذه النصائح تؤنس الطلبة المهاجرين في سبيل طلب العلم؛ فيغادروا هذا الوطن ونفوسهم مشرئبة للعودة إليه؛ وقد نضجت العقول واشتدت السواعد وتهيأت النفوس للعمل من أجل مصلحة الوطن؛ وخدمة قضاياه.

ولأن يد الله مع الجماعة؛ ولا يأكل الذئب من الغنم إلا الشاة القاصية. كما جاء في السنة النبويّة المطهّرة . فقد أذّن الشيخ البشير الإبراهيمي في النخبة العاملين والساسة المخلصين للقضية الجزائرية بالاتّحاد والتراص في الانتخابات النيابية؛ حيث قال:" إن العمل النافع للجزائر يبتدئ من الجزائر، وإن الانتخابات باب للمرور، لا دار للاستقرار، فاعبروه متكاتفين، ولا تعبروه متخالفين، واجعلوا مصلحة الوطن قبل مصلحة الحزب، ومصلحة الحزب قبل مصلحة الشخص".33وإذا تمعنتَ معي في لفظة " العبور" ألفيتَ ما يوحي إلى الحذر في الحركة والتركيز عند التحرك؛ ففي مضمون هذا النداء سبب النجاة لو أسمعَ حيّا.

إن تركيز الخطاب على النخبة السياسية فيه من الفوائد ما يغني الجمعية عن امتهان السياسة ودخول معتركها؛ وهي التي أُنشئت من أجل أهداف أسمى وغايات عظمى؛ بعيدا عن السياسة وما تخلّفه من كيد وعداوة وأنين؛ وما تستهلكه قضاياها من وقت ثمين.

ومن أجل الغاية تلك، وظف الشيخ في دعوته للنخبة والساسة ما ألهمه الله من تلطف في الخطاب، وما حباه المولى من قوة البيان مركزا على الأصول الثلاثة كقوله:" واتخذنا من الإسلام والعروبة الجزائرية محورًا للدعوة إلى الاتحاد، وموئلا نسوق إليه المتفرقين من أهله...ولأن الاستعمار إنما يسومنا الخسف والظلم لأجل هذه الثلاثة ويغالبنا عليها منذ قرن ونيف"34.

في نهاية هذه الجولة السريعة في حدائق النص الإبراهيمي؛ وقراءة شيء من المنجز الإبداعي المتعلق بمقالاته . رحمه الله . نوجز ذكر ما توصلنا إليه بعد تلك الجولة المفيدة:

. لم يخل مقال من مقالات الشيخ البشير الإبراهيمي من الحديث عن تلك الأبعاد الثلاثة مجتمعة أو متفرقة؛ مما يؤكد قيمة تلك الأصول التي تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين لأجلها.

. قد لا يُذكر بعد من تلك الأبعاد في مقال ما؛ كأن يكون مثلا موضوع المقال خاصا بقضية اجتماعية كالطلاق، أو الزواج؛ إلا أن حضور تلك الأبعاد سيكون ضمنيا؛ فالقضية اجتماعية تتعلق بالمجتمع الجزائري الذي يخضع في معاملاته للشريعة الإسلامية.

. وجدنا أن هذه الأبعاد لا يمكن الفصل بينها بأي حال من الأحوال؛ فمهما حاولتْ ذلك وجدت أن الجزائريين يعيشون ضمن دوائر ثلاث متداخلة: الوطن الجزائر؛ يقع داخل نطاق العروبة؛ ضمن دائرة أكبر هي الإسلام؛ وعلى هذا الأساس كان تركيز المحتل الفرنسي على محاربة اللغة العربية بكل السبل ومهما كلّفه الأمر من تضحيات؛ لأن في تمييع هذا اللسان؛ قضاء على اللغة العربية في النفوس؛ ويؤدي إلى انسلاخ الأمة الجزائرية عن مقوم هام يحفظ لها الانتماء ويحصنها من الاندماج الذي يعني الذوبان؛ فالقوة للمنتصر والمنتصر مُتَّبع . كما يقرر ابن خلدون.

. لولا أن الله سبحانه وتعالى لم يُجر قدره في هذه الأمة؛ ولم يُلهم هؤلاء الرجال وينتخبهم لإنجاز هذا المشروع لتَحقّق اعتقاد من تساءل قائلا: "لو كنتُ قد اكتشفتُ أمة جزائرية لكنت وطنيا، ولم أخجل من جريمتي، فلن أموت من أجل الوطن

الجزائري لأن هذا الوطن غير موجود، لقد بحثت عنه في التاريخ فلم أجده، وسألت عنه الأحياء والأموات وزرت المقابر دون جدوى."35

. نجاح الجمعية في عهد الشيخ البشير الإبراهيمي في المجال الإعلامي خاصة؛36بالرغم من وجود قوانين المنع والتوقيف؛ التي راكمها المحتل لتكون سيفًا مسلّطًا على جرائد الجمعية وصحفها؛ إذ إن هذا المجال ساهم في إرشاد أبناء الأمة وتوعيتهم بضرورة التمسك بالمبادئ الثلاثة التي هي شعار الجمعية: "**الإسلام ديننا، العربية لغتنا، الجزائر وطننا**".

توصيات:

. مطالبة المشرفين على الكتاب المدرسي والقيمين على شؤون التربية في الجزائر بالاهتمام بتراث الشيخ البشير الإبراهيمي؛ وإدراج النص الإبراهيمي ضمن اهتمامات اللجان الخاصة بوضع البرامج وانتقاء النصوص.

. السعي إلى ترجمة مقالات البشير الإبراهيمي ونصوصه الحُبلى بالأبعاد الإنسانية والغنية بالمثل العليا؛ التي تجمع ولا تُفرّق وتوحِّد ولا تمزّق؛ فمِنَ العيب أن يبقى النص الإبراهيمي يُتداول بين قرّاء العربية فقط؛ فهو أولى من غيره بالذيوع والانتشار في الثقافات الأخرى، حتى يُكتشف من قبل النخبة الغربية؛ فتصلهم رسائله؛ ولا يمكن أن يتحقق ذلك دون ترجمة جادة لبعض أعماله إلى اللغة الإنجليزية ونشرها.

الهوامش والإحالات:

[1] . بدأت تبرز إلى الوجود في تلك الآونة طوائف من دعاة الاستسلام يلقنون مواطنيهم الجزائريين فلسفات الغرب والمبادئ السياسية المستوحاة من تفاوت المجتمعات وتفوق أوروبا في كل فكر، وكل أدب، وكل ذوق، وبدأت تدب إلى أذهان الضعفاء أفكار الاندماج والذوبان في كيان حضاري جديد يتمتع في نظرهم بالعزة المادية والرقي العلمي. ينظر: حماة الثقافة الإسلامية، عبد المجيد مزيان، ضمن كتاب " الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه، دار الأمة، الجزائر، ط2/ 2012، ص 07.

[2] . ففي عام 1936كتب فرحات عباس في جريدة الوفاق الفرنسية مقالا شهيرا تحت عنوان 'فرنسا هي أنا'، أكد فيه دعوته إلى الاندماج مع فرنسا، مستنكرا وجود الأمة الجزائرية، حيث قال: "لو كنت قد اكتشفت أمة جزائرية لكنت وطنيا ولم أخجل من جريمتي، فلن أموت من أجل الوطن الجزائري، لأن هذا الوطن غير موجود، لقد بحثت عنه في التاريخ فلم أجده وسألت عنه الأحياء والأموات وزرت المقابر دون جدوى."ينظر في ذلك: التاريخ السياسي للجزائر؛ من البداية ولغاية 1962، عمار بوحوش، دار البصائر، الجزائر، ط2008/3، وفرحات عباس زعيم وطني ورجل سياسي، جريدة الشعب النسخة الالكترونية/ السبت 10 سبتمبر 2016، تاريخ الاسترجاع، 01/24/ 2019، على: 10:00.

[3] . يذكر الشيخ البشير الإبراهيمي . في مقال يعرّف فيه بنفسه . ثمارَ هذا المشروع ونتائجه قائلا: " ولو نشاء لقلنا إننا أحيينا اللسان العربي، والنخوة العربية، وأحيينا دين الإسلام وتاريخه المشرق، وأعدنا لهما سلطانهما على النفوس وتأثيرهما في العقول = والأرواح، وشأنهما الأول في الاتعاظ والأسوة، فأحيينا بذلك كله الشعب الجزائري فعرف نفسه، فاندفع إلى الثورة يحطم الأغلال ويطلب بدمه الحياة السعيدة والعيشة الكريمة، ويسعى إلى وصل تاريخه الحاضر بتاريخه الغابر". ينظر: أنا، محمد البشير الإبراهيمي، ضمن كتاب " الشيخ محمد البشير الإبراهيمي بأقلام معاصريه، ص 31 / 32.

[4] . عيون البصائر، مجموعة المقالات التي كتبها افتتاحيات لجريدة البصائر خاصة، محمد البشير الإبراهيمي، دار المعارف، مصر/ 1936، ص 128.

[5]. المصدر نفسه، ص ن.

[6]. نشر هذا المقال في العدد 122 من جريدة البصائر لسنة 1950.

[7]. عيون البصائر، ص 129.

[8] . نفسه، ص ن.

[9] . ينظر: المصدر نفسه، ص 129/ 130.

[10]. نشر في جريدة البصائر، العدد 13 من السنة الأولى من السلسلة الثانية 1948.

[11] . عيون البصائر، ص 53.

[12]. المصدر نفسه، ص ن.

[13]. نفسه، ص 55.

[14]. نفسه، ص 56.

[15]. نفسه، ص 58.

[16] . نشر في العدد 114 من جريدة البصائر سنة 1950.

[17] . عيون البصائر، ص382.

[18]. لويس ماسينيون علم فرنسي مستشرق (1883–1962) ؛ من مؤلفاته: مهمّة في ما بين النهرين، مجلدان، مركز الدراسات العربية والشرقية في القاهرة. وبحث في الأصول اللغوية لمصطلحات التصوُّف الإسلاميّ. و مختارات من نصوص غير منشورة تخص تاريخ التصوف في بلاد الشام، وحولية العالم الإسلامي؛ (بالاشتراك)، وأخبار الحلاّج.ينظر: http://montada.echoroukonline.com

[19] . عيون البصائر، ص 385.

[20] . نفسه، ص 383.

[21] . نشر في جريدة البصائر، العدد 36 لسنة 1948.

[22] . عيون البصائر، ص 333.

[23] . المصدر نفسه، ص 336.

[24] . نفسه، ص 337.

[25] . نفسه، ص 16.

[26] . نفسه، ص ن.

[27] . بلغ عدد هذه المقالات عشرة عنونها كلها بهذا العنوان ونشرت في عشرة أعداد متتابعة من جريدة البصائر لسنة 1949: أولها كان العدد65، وكان آخرها العدد 74.

[28] . عيون البصائر، ص 225.

[29] . نفسه، ص 229.

[30] . نفسه، ص 232.

[31] . نفسه، ص 213.

[32] . نفسه، ص 208.

[33] . نفسه، ص 326.

[34] . نفسه، ص 328.

[35] . سبقت الإشارة إلى صاحبه في الصفحة الأولى.

[36] . تعتبر الجمعية من أكثر التنظيمات السياسية نجاحا بعد الحرب العالمية الثانية في الميدان الإعلامي؛ بفضل جريدة البصائر التي كانت تصدر بانتظام. ينظر: التاريخ السياسي للجزائر، مرجع سابق، ص269.